الثورة
يومية سياسية

تصدر عن مؤسسة الوحدة للصحافة و الطباعة و النشر

نصير شورى فارس الألوان الوسيمة

ملحق ثقافي
2017/5/16
د. محمود شاهين

طيلة نصف قرن ويزيد، قام الفنان التشكيلي السوري الرائد (نصير شورى) برشق ألوانه الوسيمة، فوق بياض اللوحة البكر،

محولاً إياه إلى ولائم بصريّة ساحرة، تحتضن رقته، ومن بين حناياها تطل إنسانيته الرفيعة النبيلة، وفي سحبة خطوطها، تنفر روحه الطفلة، ومن كل بقعة لون، تبرز شخصيته الوديعة، المحبة، الهادئة، الحساسة حتى التطير والمرض!!.

مسيرة حافلة

فهذا الفنان الذي غادر الحياة في الخامس من تشرين الثاني عام 1992، عن عمر ناهز الثانية والسبعين عاماً (مواليد دمشق 1920) كان واحداً من رو
التشكيلي السوري وأحد فوارس اللون والخط والتعب السعيد الذي يدعى (الفن). حمل في شخصيته روح الفنان
الحقيقي القادم إلى مفازات الجمال بموهبة أصيلة، تبلورت ونضجت وجمّعت المعارف، عبر الممارسة والدراسة الأكاديميّة التي بدأها
في كلية الفنون الجميلة في القاهرة (تخرج فيها العام 1947) وأنهاها في أكاديمية الفنون الجميلة بروما (تخرج فيها عام 1951) وكان أول من يحصل
الأستاذيّة (بروفيسور)
بين أعضاء الهيئة التدريسيّة بكلية الفنون الجميلة بجامعة دمشق التي عمل فيها مدرساً لمادة الرسم والتصوير، وشغل منصب وكيلها
العلمي عدة سنوات، وكان ملازماً لزميله ورفيق دربه الفنان الرائد محمود حمّاد الذي غادر الحياة قبله بأربع سنوات (1988) في الفن
والعمل الوظيفي.

عُرف عن الفنان الرائد نصير شورى وداعته، وطيبته، وحساسيته المفرطة، ومحبته، وحرصه الشديد على ألا يسيء حتى لنملة تدب على الأرض، فقد تماهت فيه شخصية الإنسان بالفنان. اختلطت قيمهما النبيلة، فكنا أما صورة مثلى لفنان يعيش إنسانيته بأبعد صفاتها الخيّرة، الطيبة، وأمام إنسان ينسكب بعفوية الطفل ونقائه، فوق سطح اللوحة، كلما لامست ريشته الشاعريّة بياضها.

الفنان والإنسان

لقد كان نصير شورى مثالاً نادراً للفنان الإنسان، والعكس صحيح أيضاً، لذلك شكّل إشارة بارزة وفريدة في الوسط الفني التشكيلي السوري المعاصر. هو نسيج وحده. نسيج لحمته النقاء النبيل، وسداه الاجتهاد المنقطع النظير، في الإنتاج والعرض وتعليم المواهب الفنيّة الشابة.

بدأ الفنان نصير شورى مسيرته الفنيّة كما يبدأ معظم الرسامين: انطباعياً مسحوراً ببقع اللون
الوسيمة، يزغرد بين جنباتها الضوء، ويستحم في ثناياها الجمال. وقد استمرت هذه المرحلة عنده
مدة طويلة من الزمن، كان خلالها معلماً بارزاً في استنباط الألوان الانطباعيّة الشفيفة المسكونة

بغنائيّة رومانسيّة قادرة على مغازلة بصر وأحاسيس المتلقي، عالج من خلالها، موضوعات لصيقة بالبيئة المحيطة به: العمارة القديمة، القرى، المناظر الطبيعيّة، الورود والأزاهير، الأمومة، الوجوه وموضوعات إنسانيّة مختلفة.

منصة جديدة

بعد المرحلة الواقعيّة الانطباعيّة، وبتأثير جملة من العوامل، منها سفره واحتكاكه باتجاهات الفنون التشكيليّة الجديدة، وتعمقه بشكل أكبر بمعطيات التراث العربي، إضافة إلى معايشته اليوميّة لتجربة زميله ورفيق عمره محمود حمّاد الذي كان قد سبقه إلى رحاب التجريد الحروفي، غادر الفنان نصير شورى منصاته الرومانسيّة الوسيمة، إلى نوع من التلخيص الحذر للشكل المشخص، واختزال للون، أعقبته مرحلة جديدة وقفت فيها لوحته في برزخ خاص يقع بين التشخيص والتجريد، دون أن يتخلى عن اللون المسكون بالشعر والشفافيّة، وهو عشقه الذي ظل يتملكه حتى سقوط الريشة من يده!!

جرّب الفنان شورى في هذه المرحلة، أكثر من تقنية لونيّة، وذهب بعيداً في حسابات عقليّة صارمة للشكل ومعمار اللوحة، ما حوّل لوحته، إلى حالة تجريبيّة بحتيّة، أفقدتها الكثير من وسامتها وجمالها وخصائصها الدالة على شخصيته الرومانسيّة الرقيقة. مع ذلك، ظل ولعه الشديد بالعجينة اللونيّة، المشبعة بالضوء، والمفعمة بالرومانسيّة، طاغياً وحاضراً، رغم محاولة إقصائه ودفعه بعيداً، لصالح نزعة بحث وتجريب وتجديد تقاني، يقودها العقل، وتفرضها عليه، عوامل خارجيّة، على مضض، الأمر الذي جعل من عشقه العجيب للانطباعيّة، متوارياً في القلب: ولائم فرح، ورغائب ملجومة، وحنيناً لا يعرف المهادنة، تمكن العقل من جعلها تنكفئ، لكن إلى حين، بدليل تململه الدائم، ورغبته الملحاحة، باستعادته لهذا الشكل أو ذاك.

مهادنة وتوفيق

هذا التوزع المؤرق للفنان نصير شورى، بين عفويّة الانطباعيّة، وعقلانيّة التجارب المخبريّة المجردة وشبه الزخرفيّة، دفعه لمحاولة التوفيق: بين العشق القديم، وبين التجارب الداعيّة التي قادها المختبر في داخله، ما جعله يسخر مرحلة الاغتراب الشكلاني المجرد ونتائجها للخروج بانطباعيّة جديدة، تخلص فيها من التفصيلات الصغيرة لصالح المساحات اللونيّة الواسعة والمؤطرة والمشغولة بوسائط أدوات ووسائط تشكيليّة وتعبيريّة جديدة.

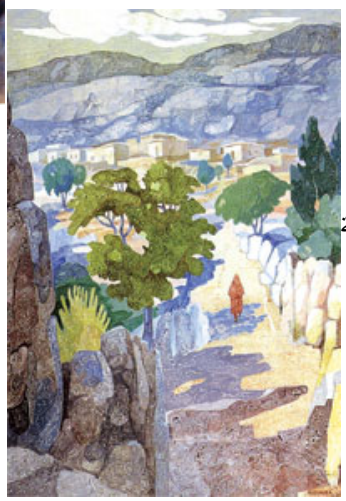

لقد تحولت اللوحة لديه خلال مرحلة البحث والتجريب هذه، إلى حالة من المهادنة والتوفيق، بين المرحلة الأولى في تجربته الفنيّة القائمة على ولع شديد باللون الشاعري المطرب للعين والإحساس، والمعجون برومانسيّة لصيقة بشخصيته ومكوناتها، والمرحلة الثانية المتسمة برصانة حساباتها الشكليّة واللونيّة، واختزالاتها المدروسة شكلاً وتموضعاً، الواقفة بتردد، في البرزخ الفاصل بين (التشخيص) والدلالة الواقعيّة، وبين التلخيص والاختصار الشكلي واللوني، يضاف إلى ذلك، ابتكاره لطريقة خاصة في مد اللون فوق مساحات الأشكال، تقوم على تحديد هذه المساحات، وعزلها عما يجاورها، ثم تلوينها بوساطة إسفنجة، وبتأثيرات تكنيكيّة متباينة، غلبت عليها أسلوبيّة التنقيط الناعم والخشن، والتهشير المدروس كإيقاع شكلي ولوني.

رغم الهواجس التي تملكت الفنان نصير شورى، خلال هذه المرحلة، ورغبته بالانعتاق من الواقعيّة التشخيصيّة إلى نوع من التجريديّة الهندسيّة والزخرفيّة الجديدة، ليجاري بها التجربة التجريديّة الحروفيّة لزميله ورفيق دربه الفنان محمود حمّاد، ظلت المفردات الواقعيّة المشخصة (إنسان، طيور، مناظر طبيعيّة) وعناصرها (أشجار، أزهار، جداول، نباتات) ظلت حاضرة في لوحته:

مقروءة وواضحة، وتذهب بالمتلقي مباشرة، إلى دلالتها الواقعيّة.

خصائص ومقومات

جملة من الخصائص والمقومات، تفردت بها لوحة الفنان شورى، خلال هذه المرحلة أبرزها: التكوين المدروس والمتين لعمارتها وحركته، بحيث يقوم كل عنصر فيه بإسناد العنصر الآخر وتأكيده كهيئة وكدرجة لونيّة. بمعنى أن اللون لديه، استقر ضمن الشكل المناسب، ثم تنامى الشكل واللون معاً، ضمن إطار من السيطرة التامة والكاملة، على سطح اللوحة الذي ظل (رغم غواية التجريب التقاني التي سيطرت عليه) مفعماً بالحساسيّة، ومعجوناً بالرومانسيّة، ومنحازاً إلى عشق قديم ـ جديد، مطمور في الأعماق، نما وكبر واشتد عوده، وبالتالي تأثيره على روحه وكيانه، أثناء تجوال الفنان شورى وترحاله، مطالع حياته، في بساتين دمشق وحقولها وقراها، ورصده لعرائش وأشجار بيوتها القديمة الجميلة الحاضنة لدفء شمسها، ونقاء ضوئها، ولعل هذا ما يفسر عدم غياب مفردات الطبيعة عن لوحته، في مراحل تجربته الفنيّة كافة.

المعرض المدهش

هذا العشق المدنف للطبيعة والانطباعيّة واللون المعجون بالضوء والرومانسيّة، سرعان ما انبثق وتأكد وظهر وبان، في أعمال معرضه الفردي الذي أقامه في صالة الكزبري بمريديان دمشق العام 1989، والذي ضمنه مجموعة اللوحات التي كان قد أنجزها أثناء رحلة له إلى إحدى مقاطعات الولايات المتحدة الأمريكيّة، حيث تقيم ابنته، رصد فيها بكثير من الشاعريّة، والقدرة، والتفوق، والخبرة، والموهبة، جماليات الطبيعة الخريفيّة في هذه المقاطعة، بشتى مظاهرها ورموزها وألوانها، وبأقصى ما يمكن من التأثر والوجد، بحيث يمكن القول، أن هذه الجماليات الطبيعيّة الرومانسيّة التي واجهها، كشحت الرماد بقوة، عن جمر عشقه المطمور والكامن داخله، الذي توهج واشتعل وأعاده بقوة، إلى طفولته ويفاعته في بساتين وحقول دمشق. وبالخبرة الكبيرة التي جمعها من دراسته الأكاديميّة، وانكبابه المجتهد والمتواصل على الإنتاج، استعاد وجده القديم ـ الجديد، عبر لوحة مائيّة جديدة ومفعمة بحساسيّة عالية، وتفاعل كبير، وصدق نادر، وتأثر بالغ، بموضوع الطبيعة. ولأنه كان في هذا الوقت، يمتلك خبرة كبيرة وعميقة، في التعامل مع وسائل التعبير في هذا المجال، جاءت لوحته الجديدة هذه، لتشكل منعطفاً هاماً ومفصلياً في تجربته الفنيّة الثرة والغنية. منعطف أعاده إلى المنصات التي انطلقت منها هذه التجربة، إنما برؤية جديدة متجددة، طاولت الموضوع ووسيلة التعبير عنه في آنٍ معاً.

هذه الحالة، تكررت معه مرة ثانية، عقب رحلة قام بها إلى بلغاريا، عاد منها بمجموعة من اللوحات المائيّة الساحرة، أكدت من جديد، أن هذا المعلم الكبير، رغم رحلته الطويلة والمتشعبة مع الرسم والتصوير، الحافلة بشتى صنوف البحث والتجريب التقاني، ظل مسكوناً بحب جارف للطبيعة وللانطباعيّة الجميلة الأشكال والألوان، الثرة الأحاسيس.

اختزلت اللوحات الأخيرة للفنان شورى، عمراً من الوجد المشتعل، والحنين اللاهب، إلى أيام عشق فيها الطبيعة التي نقلها إلى فنه، بخبرته الطويلة، وتأمله العميق لكل جزء من أجزائها، شجرة كانت أم زهرة، أم ورقة غافلت العاصفة واحتمت من شمس الخريف، تحت إبط غصن حنون، وفي الوقت نفسه، أكدت هذه اللوحات، أن نصير شورى من أهم فرسان الألوان الوسيمة في التصوير السوري المعاصر.

E - mail: admin@thawra.com

مؤسسة الوحدة للصحافة والطباعة والنشر ـ دمشق ـ سورية